بين المجلة والقراء

الألم ومحبة الله[1]

جاءنا سؤال من الأخ وجيه رياض بشبرا عن الآلام الموجودة في العالم، وكيف تتفق هذه الآلام مع وجود إله محب يرعى الكون ويضبط أموره.

١- موقف الله من آلام سببها الخطية:

اعلم يا أخي الحبيب أن الله عندما خلق العالم، لم يوجد الألم فيه. والله الذي كان منذ القديم محبًا للبشر أحاط الإنسان بكل الوسائل التي تكفل له السعادة. وإنما دخلت إلينا الآلام بواسطة الخطية، التي وقع فيها أبوانا الأولان والتي نقع فيها يوميًا. مثال ذلك: أخطأ قايين وقتل أخاه -رغم تحذير الله له- فإذا بحالة رعب تمتلكه، ويشعر أنه مطارد باستمرار، وأن هناك من يترصده ليقتله، فيعيش تائهًا وشارِدًا في الأرض. إنه هو الذي جلب لنفسه هذه اللعنة بتصرفه الرديء. تقول: ولكن الله عاقبه بهذا، أجيبك: وهل كنت تريد الله أن يسكت على هذا الشر، ويترك الحاسدين يقتلون الأبرار دون ضابط أو منتقم؟ ولو فعل الله ذلك، أكان يُعتبر في نظرك إلهًا عادلًا، أما كان سكوت الله يساعد الشر على الازدياد؟!

إذن فالناس يجلبون لأنفسهم الآلام أحيانًا بسوء أفعالهم الرديئة التي تصطدم بعدل الله المحب. ومن هذا النوع أيضًا السارق والزاني والعربيد وكاسر القانون حينما يُقبض عليهم ويذوقون قصاص العدل الأرضي. إنهم يتألمون ولكنهم هم الذين جلبوا على أنفسهم الألم.

وحتى هؤلاء لا يتركهم الله، وإنما ينصحهم ويرشدهم قبل فعلتهم، ثم هو بعد خطيئتهم يفتح لهم قلبه ويقبلهم كتائبين. لذلك ليس غريبًا أن تسمع الرسول يقول: "فَلاَ يَتَأَلَّمْ أَحَدُكُمْ كَقَاتِل، أَوْ سَارِق، أَوْ فَاعِلِ شَرّ، أَوْ مُتَدَاخِل فِي أُمُورِ غَيْرِهِ" (١بط ٤: ١٥). فالشخص الذي يخطئ فيتألم لا ينبغي له أن يحسب نفسه شهيدًا، ولذلك يقول الرسول نفسه: "لأَنَّهُ أَيُّ مَجْدٍ هُوَ إِنْ كُنْتُمْ تُلْطَمُونَ مُخْطِئِينَ فَتَصْبِرُونَ؟" (١بط٢: ٢٠).

ثم لندخل قليلًا إلى الحياة الخاصة. أترى ذلك التلميذ، الذي أهمل تحصيل العلم فرسب، فتألم لرسوبه؛ أتحسب ذلك الألم سببه الله أم إهمال ذلك الطالب؟ ومع ذلك فإن الله لا يترك مثل هذا التلميذ الراسب، وإنما يشجعه ويعزيه ويأخذ بيده، ممهّدًا له الطريق حتى ينجح في فرصة أخرى إذا أقلع عن غيّه.

وهذا المريض الذي كان يتمتع من قبل بجسد سليم، ولكنه أهمل صحته، فأتعب جسده بالإرهاق والإنهاك، أو عدم الانتظام في الطعام، أو عدم الأخذ بقواعد النظافة ووسائل الوقاية، أو الإهمال في التعرض للبرد والحر، وطرق العدوى، أو عدم الاستماع إلى قواعد الصحة: مثل هذا الإنسان إذا رقد في فراشه متألمًا، وقد جلب لنفسه الألم، هل

---

[1] نظير جيد "الألم ومحبة الله"، مجلة مدارس الأحد، السنة السادسة، العدد السابع، سبتمبر ١٩٥٢م.

الله هو الذي تسبب له في هذا؟ كلا. ومع ذلك فإن محبة الله لا تتركه، وقد يُشفى بعد أن يأخذ هو وغيره درسًا لمنفعتهم جميعًا.

والشخص الذي يزل لسانه في حديثه مع الناس فيخطئ إليهم، فيوبخونه ويهينونه، فيتألم للتوبيخ والإهانة، لا شك هو الذي جلب لنفسه الألم، الألم الذي يريد الله أن يخلصه منه.

الله المحب

ومع كل ذلك، وحتى حينما يجلب الإنسان على نفسه الألم، فإن الله المحب لا يترك هذا الخاطئ يتألم. "لأَنَّهُ فِي مَا هُوَ قَدْ تَأَلَّمَ مُجَرَّبًا يَقْدِرُ أَنْ يُعِينَ الْمُجَرَّبِينَ" (عب٢: ١٨)، وهكذا نرى سفر إشعياء يعطينا فكرة واسعة عن هذا الله المحب لنا في آلامنا، فيقول: "لكِنَّ أَحْزَانَنَا حَمَلَهَا، وَأَوْجَاعَنَا تَحَمَّلَهَا"، "وَهُوَ مَجْرُوحٌ لأَجْلِ مَعَاصِينَا، مَسْحُوقٌ لأَجْلِ آثَامِنَا" (إش٥٣: ٤-٦). هذا هو الله الذي تألم من أجلنا، حتى ينجينا من الآلام الأبدية. وهو نفسه الذي يقول لنا: "تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ"، ويقول رسوله: "مُلْقِينَ كُلَّ هَمِّكُمْ عَلَيْهِ، لأَنَّهُ هُوَ يَعْتَنِي بِكُمْ" (١بط٥: ٧).

غير أن وجه الخطأ هو أن بعض الناس عندما تحيط بهم الآلام يفكرون فيها فيتألمون، رافضين التفكير في الله الذي ينقذهم منها. وهكذا يشعرون بالألم في قسوته.

٢- آلام سببها أخطاء الناس إلينا:

على أن هناك آلامًا أخرى سببها اضطهادات الآخرين لنا، أو إساءتهم إلينا. ولكن هذه الآلام ليست شرًا ولا عقابًا، وإنما هي فرصة تقدم لنا من الله المحب حتى نحظى بأكاليل وأمجاد لا تُقدر بثمن. إنها هبة من الله، وهكذا يقول بولس الرسول: "... قَدْ وُهِبَ لَكُمْ لأَجْلِ الْمَسِيحِ لاَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا أَنْ تَتَأَلَّمُوا لأَجْلِهِ" (في١: ٢٩). والسيد المسيح نفسه، فيما يتكلم عن القديس بولس كإناء مختار، يقول: "لأَنِّي سَأُرِيهِ كَمْ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَلَّمَ مِنْ أَجْلِ اسْمِي" (أع٩: ١٦).

مثل هذا الألم يا أخي الحبيب يُعتبر بركة. أشبهه بحالة شخص يُرسل مبعوثًا إلى الخارج لصالحه، يتمناها كثيرون ولا يحصلون عليها، لذلك -والقياس مع الفارق- فرص الألم الجميلة في سبيل العقائد. لذلك كان أولاد الله يفرحون بالاضطهادات والآلام. وهكذا يقول السيد المسيح: "طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شِرِّيرَةٍ، مِنْ أَجْلِي، كَاذِبِينَ. اِفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا، لأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُمْ هكَذَا طَرَدُوا الأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ" (مت٥: ١١، ١٢)، وهكذا نجد أن الرسل جُلدوا من رؤساء الكهنة: "أَمَّا هُمْ فَذَهَبُوا فَرِحِينَ مِنْ أَمَامِ الْمَجْمَعِ، لأَنَّهُمْ حُسِبُوا مُسْتَأْهِلِينَ أَنْ يُهَانُوا مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ" (أع٥: ٤١).

ثم استمع إلى القديس بولس يقول باسم الرسل: "كَحَزَانَى وَنَحْنُ دَائِمًا فَرِحُونَ" (٢كو٦: ١٠). ومن هو بولس الذي عاش دائمًا في فرح؟ إنه بولس الرسول الذي قال عن نفسه: "فِي الأَتْعَابِ أَكْثَرُ، فِي الضَّرَبَاتِ أَوْفَرُ، فِي السُّجُونِ أَكْثَرُ، فِي الْمِيتَاتِ مِرَارًا كَثِيرَةً. مِنَ الْيَهُودِ خَمْسَ مَرَّاتٍ قَبِلْتُ أَرْبَعِينَ جَلْدَةً إِلاَّ وَاحِدَةً. ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ضُرِبْتُ بِالْعِصِيِّ، مَرَّةً رُجِمْتُ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ انْكَسَرَتْ بِيَ السَّفِينَةُ، لَيْلاً وَنَهَارًا قَضَيْتُ فِي الْعُمْقِ بِأَسْفَارٍ مِرَارًا كَثِيرَةً، بِأَخْطَارِ سُيُول، بِأَخْطَارِ

لُصُوصٍ، بِأَخْطَارٍ مِنْ جِنْسِي، بِأَخْطَارٍ مِنَ الأُمَمِ، بِأَخْطَارٍ فِي الْمَدِينَةِ، بِأَخْطَارٍ فِي الْبَرِّيَّةِ، بِأَخْطَارٍ فِي الْبَحْرِ، بِأَخْطَارٍ مِنْ إِخْوَةٍ كَذَبَةٍ. فِي تَعَبٍ وَكَدٍّ، فِي أَسْهَارٍ مِرَارًا كَثِيرَةً، فِي جُوعٍ وَعَطَشٍ، فِي أَصْوَامٍ مِرَارًا كَثِيرَةً، فِي بَرْدٍ وَعُرْيٍ. عَدَا مَا هُوَ دُونَ ذلِكَ: التَّرَاكُمُ عَلَيَّ كُلَّ يَوْمٍ، الاهْتِمَامُ بِجَمِيعِ الْكَنَائِسِ" (٢كو١١: ٢٣-٢٨). وما هو شعور بولس الدائم الفرح في كل ذلك؟ إنه يقول بعدها: "لِذلِكَ أُسَرُّ بِالضَّعَفَاتِ وَالشَّتَائِمِ وَالضَّرُورَاتِ وَالاضْطِهَادَاتِ وَالضِّيقَاتِ لأَجْلِ الْمَسِيحِ" (٢كو١٢: ١٠).

وكان القديسون يعتبرون هذه الآلام شركة في آلام المسيح. لذلك يقول القديس بولس عن السيد المسيح: "لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ، مُتَشَبِّهًا بِمَوْتِهِ" (في٣: ١٠). ويقول أيضًا: "... نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ" (رو٨: ١٧). وهذا المعنى نفسه يكرره القديس بطرس الرسول فيقول: "... بَلْ كَمَا اشْتَرَكْتُمْ فِي آلاَمِ الْمَسِيحِ، افْرَحُوا لِكَيْ تَفْرَحُوا فِي اسْتِعْلاَنِ مَجْدِهِ أَيْضًا مُبْتَهِجِينَ" (١بط٤: ١٣).

ولهذا كان القديسون يقابلون الاستشهاد فرحين بما فيه من تعذيب وموت. أتحسب يا أخي بعد كل هذا أن الآلام تتعارض مع كون الله محبًا للبشر؟ لا أظنك تفعل.

٣- آلام من الشيطان:

هناك آلام من نوع ثالث، وهي التي يسببها الشيطان عدونا الأول. ولكن في هذه الآلام لا يتركنا الله أبدًا. استمع ماذا يقول الروح لملاك كنيسة سميرنا: "لاَ تَخَفِ الْبَتَّةَ مِمَّا أَنْتَ عَتِيدٌ أَنْ تَتَأَلَّمَ بِهِ. هُوَذَا إِبْلِيسُ مُزْمِعٌ أَنْ يُلْقِيَ بَعْضًا مِنْكُمْ فِي السِّجْنِ لِكَيْ تُجَرَّبُوا، وَيَكُونَ لَكُمْ ضِيْقٌ عَشَرَةَ أَيَّامٍ. كُنْ أَمِينًا إِلَى الْمَوْتِ فَسَأُعْطِيكَ إِكْلِيلَ الْحَيَاةِ" (رؤ٢: ١٠). نرى هنا تعزية ووعدًا وتشجيعًا تجعلنا نشعر أن الله المحب لا يجعلنا أن نواجه الشيطان بمفردنا، وإن كان الله يريد أن نقاوم حتى نتمجد. ولذلك بينما يتحدث بولس الرسول عن محاربات الشيطان تراه ينصح قائلًا: "... فَقَاوِمُوهُ، رَاسِخِينَ فِي الإِيمَانِ، عَالِمِينَ أَنَّ نَفْسَ هذِهِ الآلاَمِ تُجْرَى عَلَى إِخْوَتِكُمُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ" (١بط ٥: ٩). ولكن الله المحب الذي لا يترك البشر يُجربون فوق ما يطيقون (؟؟)، نراه يحدد الآلام التي تأتينا من الشيطان.

ولذلك تسمع في قصة أيوب البار أن الله يقول للشيطان: "هُوَذَا كُلُّ مَا لَهُ فِي يَدِكَ، وَإِنَّمَا إِلَيهِ لاَ تَمُدَّ يَدَكَ" (أي١: ١٢). فإذا ما احتمل أيوب هذا، ورأى الله أن في طاقته أن يحتمل أكثر، نراه يقول للشيطان في مرة أخرى: "هَا هُوَ فِي يَدِكَ، وَلكِنِ احْفَظْ نَفْسَهُ" (أي٢: ٦). إن الله المحب لا يترك الشيطان يعبث كما يشاء، وإنما يضع له حدودًا وقيودًا. وقد سمحت محبة الله أن يُجرب أيوب من الشيطان لأن هناك أمجادًا كثيرة كانت عند الله منتظرة أيوب. وهكذا عندما يومئ معلمنا يعقوب الرسول إلى هذه القصة يقول: "قَدْ سَمِعْتُمْ بِصَبْرِ أَيُّوبَ وَرَأَيْتُمْ عَاقِبَةَ الرَّبِّ. لأَنَّ الرَّبَّ كَثِيرُ الرَّحْمَةِ وَرَؤُوفٌ" (يع٥: ١١). ويقول معلمنا بولس الرسول: "أَنَّ آلاَمَ الزَّمَانِ الْحَاضِرِ لاَ تُقَاسُ بِالْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُسْتَعْلَنَ فِينَا" (رو٨: ١٨). بل إن معلمنا يعقوب يرى التجارب مادة للفرح: "اِحْسِبُوهُ كُلَّ فَرَحٍ يَا إِخْوَتِي حِينَمَا تَقَعُونَ فِي تَجَارِبَ مُتَنَوِّعَةٍ" (يع١: ٢).

٤- آلام من الجسد:

"ويحي أنا الإنسان الشقي، من ينقذني من جسد هذا الموت؟" (رو٧: ٢٤). هكذا يقول بولس الرسول مفسرًا ذلك بقوله: "أرى ناموسًا آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي". فالإنسان طالما هو في الجسد يلاقي آلامًا من محارباته، ولكن الله المحب لم يترك الإنسان لجسده، وإنما قدسه وجعله هيكلًا للروح القدس وأعطاه أن يتناول الجسد والدم ويتبارك بالأسرار.

ملاحظتان:

١- نلاحظ أن كل الناس متساوين في التعرض للآلام وإن اختلفت النسب، فالأنبياء والرسل والشهداء كانوا من أكثر الناس تعرضًا للآلام، وإن كانوا يشعرون رغم ذلك بعمق محبة الله لهم. "كَانَ إِيلِيَّا إِنْسَانًا تَحْتَ الآلاَمِ مِثْلَنَا، وَصَلَّى صَلاَةً أَنْ لاَ تُمْطِرَ، فَلَمْ تُمْطِرْ عَلَى الأَرْضِ ثَلاَثَ سِنِينَ وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ. ثُمَّ صَلَّى أَيْضًا، فَأَعْطَتِ السَّمَاءُ مَطَرًا، وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ ثَمَرَهَا" (يع٥: ١٧، ١٨). وبولس قال: "نَحْنُ أَيْضًا بَشَرٌ تَحْتَ آلاَمٍ مِثْلُكُمْ" (أع١٤: ١٥)، في الوقت الذي حسبوه فيه إلهًا من أجل معجزة جرت على يديه. فكون هؤلاء الناس تحت الآلام لم يمنع محبة الله لهم، بدليل أنه أعطاهم القوة على عمل المعجزات.

٢- الشعور بالألم أمر نسبي في كثير من الحالات. وسببه أن التأثيرات الخارجية تجد تجاوبًا مع الإنسان في داخله. تحدث حادثة واحدة لجملة أشخاص: فيتألم لها أحدهم، ويسلم الثاني أمره لله ولا يفكر في الأمر فلا يتألم، وأما الثالث فلا يفكر في الأمر ذاته وإنما في مقابلة النتائج، بينما الرابع ينظر إلى الناحية الفكاهية في المصيبة فيضحك، وكما يقولون: "شر البلية ما يضحك".

بعض فوائد الألم:

إن الله المحب الذي يخرج من الجافي حلاوة، جعل الألم أيضًا سببًا لفوائد كثيرة منها:

١- **تنظيم المجتمع:** فلولا الآلام التي يتعرض لها المجرمون وكاسرو القانون والخطاة، ما ارتدع هؤلاء وما استقام المجتمع. وعلى هذا القياس فالألم صالح للتربية والتهذيب.

٢- آلام الناس التي نراها تشعل فينا عواطف نبيلة كالمحبة والحنان والعطف والشفقة، وتقودنا إلى خدمة الآخرين بأعمال البر المختلفة كإنشاء المستشفيات لتخفيف آلام المرضى والملاجئ لوقاية الأيتام من آلام الفقر والتشرد، وأعمال الإحسان المختلفة، بل إن الألم جعلنا نشفق على الحيوان فأنشئت جمعية الرفق بالحيوان، إلى جوار جمعيات الإسعاف والصليب الأحمر.

٣- والآلام تكون شخصيات قوية فتعلم الاحتمال والصبر والجلد في مواجهة الشدائد.

٤- والآلام تصفي النفس وتنقيها وتبعدها عن الملاذ الرخيصة.

٥- وبالآلام نشعر بالحاجة إلى حماية من كائن أعلى فنتعلم الصلاة ونوطد علاقتنا بالله.

٦- وأخيرًا فإن آلام الحياة الحاضرة تجعلنا نشتاق إلى عالم أفضل فترتبط آمالنا بالسماء، وهكذا يستطيع كل منا أن يقول: "لِيَ اشْتِهَاءٌ أَنْ أَنْطَلِقَ.... ذَاكَ أَفْضَلُ جِدًّا" (في١: ٢٣).

نظير جيد